

## غير أن هذا حديث آخر د . محمد عبد الشفيق عيسى

قد بلغ الاستقطاب الفكري والسياسي مداه في الوطن العربي الكبير. فالفرقاء السياسيون مختلفون اختلافاً بيناً، ليس إلى تسويته من سبيل فيما يبدو، وفق المعطيات المؤقتة الراهنة. ويعتبر ذلك انعكاساً لظاهرة أهم، هي تلك الظاهرة المسماة في الدراسات السياسية "تشرذم النخبة" Elite Fragmentation - كنفوض لتوافق النخبة - وهي بدورها عرض لمرض عضال أصاب المجتمع العربي هو: افتقاد (التيار الرئيسي) بين الجماهير Main-stream والذي يضم شمل المجتمع السياسي حول مجموعة من القواسم المشتركة العظمى، وتتنوع على جنبه التيارات الفرعية من كل اتجاه. وقد تبلورت هذه الظاهرة المزدوجة عبر حقبة (الانقطاع الحضاري النسبي) منذ تصاعد التهديد الخارجي - من التتار والصليبيين - فأنتج المجتمع أنظمة ذات طابع عسكري (منذ الأيوبيين والمماليك بمصر والشام مثلاً) المواجهة السن بالسن والعين بالعين.

هذا المرض العضال تقاوم بعد انحسار التهديد الخارجي وبقاء الأنظمة ذات العصب العسكري دون وظيفة اجتماعية تؤديها، وخاصة في النصف الثاني من حكم المماليك، وفي النصف الثاني من السيطرة العثمانية.

وجاء الاستعمار الأوربي الحديث فانبثق التيار الأساسي مجسداً المقاومة الوطنية. وكانت ثورات التحرر الوطني وما أعقبها لفترات متفاوتة تجسيد آخر للتيار الأساسي. فلما انتهت مهمة حركة التحرر الوطني ثم انتهت مهمات الأنظمة الممثلة لها، بالنجاح أو الفشل - عادت ظاهرة التشرذم وافتقاد التيار الرئيسي.

إن الحركة القومية العربية في الخمسينات والستينات - بقيادة جمال عبد الناصر من قاعدة مصر العربية - كانت النموذج المجسد للظاهرة المزدوجة: توافق النخبة، وتبلور التيار الرئيسي بين الجماهير. ولما هُزمت الحركة القومية بوجهها الناصري في عام ١٩٦٧، عادت النخبة إلى الانشطار وتبعثر إجماع الجماهير. حينذاك تصدت الحركة السياسية الإسلامية الجديدة لتلعب دور محفز التوافق النخبوي وموحد الجماهير، وحققت شيئاً من هدفها، ولكن ليس بصفة كاملة، فعاد تشرذم النخبة وتعثرت الإجماع الشعبي على كل حال. وها نحن أولاء

نشهد انعكاسات هذه الظاهرة الآن، مما ذكرناه في بداية المقال عن حالة الاستقطاب الفكري والسياسي العربي الحاد في الآونة الراهنة.

وتتفاقم هذه الانعكاسات في ظل الأعياب (الدولة الأمنية المعسكرة) في الفضاء أو العالم السياسي العربي. فلأنها دولة فشلت في تحقيق الهدف من وجود أية دولة في حالتنا (الأمن القومي والتنمية المجتمعية والتوحد العربي) فقد لجأت إلى استخدام مجرد العصا الغليظة لتبقي جائمة على صدر المجتمع والجماهير، وكاتمة لأنفاس النخبة لدرجة (الخنق العضوي)، حتى تتمكن من اعتصار ماء الحياة من عروق المجتمع والصفوة، وتصبه صبا في حلق و(كروش) العصب والعصابات المتسيدة.. احتكارا فظا للسلطة وللثروة جميعا، على قاعدة من استنطالة وظيفة الدولة الأولى -احتكار ممارسة العنف- كما يقال في علم السياسة، لتصبح احتكارا لكل أسباب القوة المجتمعية.

هذه إذن دولة الأمن الخالص لنفسها فقط، ومن ثم دولة السلطة والثروة لنفسها أيضا، لما تعبر عنه من قوى اجتماعية وطبقية بطبيعة الحال. هي نقيض لما يطلق عليه الباحثون - عن تجارب شرق آسيا الناهضة- "الدولة التنموية". ولقد تحملت شعوب آسيا الشرقية كثيرا من آلام الاستبداد السياسي والحرمان العمالي في ظل سياسة (الأجور الرخيصة) بل وتحملت عواقب الفساد للجماعة الحاكمة وللشركات الناشطة والاحتكارات الكبرى (ما يسمى "الشايبول" في كوريا الجنوبية). ولكنه كان ثمنا فادحا، ربما للتنمية الاقتصادية التي تحققت. ومرة أخرى، كان ثمن هذه التنمية فادحا، دفعته الشعوب الآسيوية في الحقيقة من تراثها الحضاري الذي اضطرت لقطعه قطعا في مرات كثيرة، تحت وطأة ما هو أشد: الدوران في فلك الإمبراطورية الأمريكية ومشروعها الامبريالي العالمي.

ولكن هناك شيئا قد حدث: التنمية الاقتصادية. وللمرة الثالثة نقولها: ربما ليست هذه تنمية اجتماعية وثقافية وسياسية، وهذا ثمن باهظ آخر. ولكنها تنمية اقتصادية على كل حال. بيد أننا نحن العرب تحملنا تلك الأنظمة الأمنية المعسكرة بين طهرانينا، وربما حملناها فوق ظهورنا حملا، علما تحقق شيئا، فلم تحقق لنا شيئا. فلا الأمن القومي العربي من الاستعمار والصهيونية قد تحقق (لا بل كانت الأنظمة شريكا في لعبة الاستعمار والصهيونية في كثير من الأحيان).. ولا التوحد العربي.. ولا التنمية الاقتصادية قد تحققت. إنها أنظمة فقدت المبررات الأولى لوجود أي نظام. بل هي (دول إقليمية) فقدت مبرر وجودها كدول أصلا، ومنذ البداية، في الحق. فماذا يبقى؟

إن النخبة والجماهير على المحك. وإن توافق النخبة على القواسم الوطنية والقومية والاجتماعية العظمى مطلوب. وبناء التيار الرئيسي في وسط الجماهير مهمة ملحة. ولكن ذلك لن يتحقق فجأة أو بصفة مجانية، وإنما يبدأ من حرث الأرض قبل بذر البذار وإنبات الزرع.

فكيف نحرث الأرض؟

فلنقل مع عصمت سيف الدولة - في ذكراه- قولته الموحية في آخر كل بحث: غير أن هذا حديث آخر.